

المحاضرة التاسعة/ تنظيمات الرسول في المدينة المنورة/ عصر الرسالة والخلافة الراشدة/ إعداد الاستاذ الدكتور/ رزاق حسين عبد معين

بعد أن وصل النبي الكريم محمد(صلى الله عليه وآله) إلى المدينة المنورة شرع على الفور بخطوات بناء مجتمع إسلامي قائم على أسس صحيحة، بعيداً عن التناقضات القبلية التي مزقت المجتمع العربي، وجعلته متأخرًا لقرون طوال، ومحقت وجوده أمام الإمبراطوريات المجاورة للعرب. وأول تلك الخطوات العملية كانت هي:

1- إزالة أسباب العداء بين الأوس والخزرج: ذلك العداء الممتد لسنوات طويلة قبل مقدم النبي عليهم، بالذات السنوات الخمس الأخيرة قبل هجرته إليهم، إذا كان الصراع على أشده فيما بينهم؛ نتيجته كانت هزيمة كبيرة للخزرج. وبناءً عليه كان ثمة مشكلة كبيرة في العلاقة بين القبيلتين، كان على النبي حلها؛ من أجل إرساء علاقة صحيحة ودائمة في إطار مجتمع إسلامي متعدد يسوده النظام والاستقرار. وخير مثال على ذلك هو إطفاء النبي للنار الموجود بين أسعد بن زرارة الخزرجي وبين بني عمرو بن عوف من قبيلة الأوس، وكان السبب في ذلك هو قتل أسعد لأحد رجالهم إبان حرب بعاث بين القبيلتين، فما كان من النبي إلا أن حل النزاع بأن طلب من ثلة من الرجال أن يقيلوا الرجل، ففعلوا، وبذلك حل نزاع طال أمده. وبعد ذلك سمي أهل المدينة بأسم الأنصار في قبائل أهل مكة الذين سمو بالمهاجرين.

2- تأسيس مسجد قباء: من المعروف إن بناء المساجد إنما هو لإقامة الصلوات، وفي الواقع أن بناءها في الإسلام ليس للغرض المُشار إليه فحسب، فثمة أهداف أخرى لها، تتجلى وضوحاً في رغبة النبي إيجاد مركز عام يجمع المسلمين؛ لتلقي الأحكام الشرعية، وتداول الأمور الخاصة بهم على أساس تحقيق مصلحة المجموع. وأراد النبي من المسجد أن يحل محل المنتديات القبلية التي كانت أكثر ما تروج له هو تأجيج الفتنة بين القبائل وتزيد الشحناء بينها، الأمر الذي كثيراً ما أوقع حروباً ونزاعات الخاسر الوحيد فيها العرب والمستفيد منها اليهود. ومن الجدير بالذكر أن هذا المسجد ليس المسجد النبوي، بل هو مسجد آخر يبعد عن المدينة المنورة قرابة الستة كيلومترات، وهو المسجد الذي أُسس على التقوى المذكور في القرآن الكريم، وهو ذاته المكان الذي أقام به النبي أربعين يوماً كما قيل منتظراً قدوم الإمام علي مع الفواطم.

3- بناء مسجد المدينة ومساكن النبي: بعد ترك النبي قباء، حيث كان نازلاً عند بني عمرو بن عوف، توجه نحو المدينة المنورة من أجل الإستقرار بها، لكن وبسبب الحساسية القبلية لم يستطيع أن يقول عند مَنْ سيمكث؛ لتجنب الصراع بين القبائل العربية؛ لذا كان يقول لكل مَنْ حاول أن يمسك بزمام دابته: "خلوا سبيل الناقة فإنها مأمورة" وقبلوا هذا لثقتهم الكبيرة به، وحتى يُفهمهم أن تحديد مكان إقامته سيكون من الله (ﷺ) وليس من عنده.

وأختارت الناقة مكاناً معيناً فشيّد فيه المسلمون مسجد النبي ومساكن زوجاته، وكان المكان مَرَبِداً لغلّاميين يتيمين من بني النجار، فأشتراه الرسول منهما بعشرة دنانير. ولما كان المَرَبِدُ مجاور لدار أبي أيوب النجاري (وهم أخوال النبي) فقد إختار أن يقيم عنده حتى يكتمل بناء المسجد ومساكنه. وفي الحقيقة فقد أشترك المسلمون في البناء حتى النبي نفسه. وكان بناء جدران المسجد ومساكن زوجاته من اللبن، وسقفها بجذوع النخيل والجريد، وغالبًا ما كانت الغرف صغيرة تطل أبوابها على المسجد مباشرةً. وفي السنة الثالثة للهجرة النبوية المباركة أمر النبي بغلق أبواب المسلمين المفتوحة بإتجاه المسجد إلاّ بابه وباب الإمام علي، فأعرض بعضهم على هذا الأمر، فقال لهم النبي: "ما أنا فتحت بابه ولا سدّدت أبوابكم بل الله فتح بابه وسدّ أبوابكم".

4- المؤاخاة بين المسلمين: من أهم الأشياء التي جاء بها الإسلام بعد إركاز مفهوم التوحيد تطبيقًا عمليًا هو التكافل الإجتماعي. وفي الحقيقة أن المؤاخاة تأتي ضمن هذا الإطار؛ من أجل بناء مجتمع إسلامي راسخ، قائم على أساس المودة والتعاطف والرحمة، بعيدًا عن الحيف والجور الذي عانت منه الطبقة الفقيرة بالذات في مكة.

وفي الواقع حصلت المؤاخاة مرتين، الأولى: كانت في مكة بين من سموها فيما بعد بالمهاجرين، كان الغرض منها هو زرع روح الأخوة بينهم "طبعًا محاولة منه أن يبقى كل شخص مع مَنْ يتناسب معه"، فإذا ما لاحظنا الأشخاص سنلاحظ هذا بكل يسر، فقد آخى النبي بين حمزة عمه وزيد بن حارثة (ربيبه)، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن

بن عوف، وبين طلحة والزبير، وبين سلمان المحمدي وأبي ذر الغفاري، وبين عبدة بن الحارث (وهو عم النبي) وبين بلال الحبشي مؤذنه، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبدة عامر بن الجراح وبين سالم مولى أبي حذيفة، وترك مؤاخاته مع الإمام علي إلى النهاية، ولما سأله الإمام عن عدم مؤاخاته قال له النبي بأنه تركه لنفسه، أي أن النبي ترك الإمام علي ولم يؤاخي بينه وبين أحد من المسلمين؛ ليؤاخي بينهما أي بين النبي والإمام، وهذا حتمًا درسًا أراد النبي من المسلمين معرفته والوقوف عليه من باب التأكيد على مكانة الإمام علي.

أما المؤاخاة الثانية في كانت في المدينة المنورة فقد آخى النبي بين أبي بكر وخارجة بن زهير الخزرجي، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي، وبين معاذ بن جبل وأبي ذر الغفاري، وبين حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب الأنصاري. وفي الحقيقة ثمة أسباب ربما لا نعلمها قامت عليها ضرورات إختيار أشخاص دون غيرهم ليكونوا أخوة. لكن ما يمكن أن يفهم أن أحد أسباب المؤاخاة هي مادية، ذلك أن غالبية المهاجرين كانوا قد تركوا وراء في مكة كل شيء، فصار في المدينة فقراء بلا مأوى ولا زوجات وبعضهم بلا أولاد، فكان على النبي أن يحل مشاكلهم؛ لتستقيم حياتهم وينطلقوا في فضاء أرحب من حياة الضيق والظنك التي عاشوها في مكة تحت هيمنة الطغاة.

إن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تكن أمرًا دائمًا فثمة أسباب أوجدتها، وتزول عند إنتفاء تلك الأسباب. ومن أجل إستتاب مصالح المهاجرين أقطع النبي أراضي للمهاجرين لم تكن لأحد، كما أقطع لهم بعض الأنصار من أراضيهم. وكان من أبرز نتائج المؤاخاة المؤقتة هو أقرار التوارث بين المتأخين حتى معركة بدر سنة 2هـ. بدليل قوله (ﷺ): **لِإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ**

اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ {الأنفال/72.

وهذا الأمر في الحقيقة يكشف أن أحد أسباب المؤاخاة كانت سبباً مادياً، إذ عانى بعض المسلمين من الفقر المدقع، ولم يكونوا قادرين على إداء وظائفهم المنزلية؛ لذلك كان المؤاخاة حلاً مؤقتاً حتى يعملوا ويستعيدوا وضعهم المادي الطبيعي، ولا يكونوا عالة على بعضهم. فضلاً عن أن المؤاخاة أوجدت نوع من التكافؤ في التعامل ما بين المهاجرين والأنصار، أي ثمة رغبة نبوية في كسر التفوق الطبقي الموجود عند بعض المسلمين من الفريقين.

وبعد معركة بدر نزل قوله (ﷺ): { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . الانفال/
75. أي نسخ التوارث فيما بينهم وعاد إلى وضعه الطبيعي أي أن يتوارث الأهل والأقارب.